# الإهداء..

إلى الحُب، وشغف التجربة، والأحلام المجنونة..

إلى كل الأشياء التي علّمتنا في النهاية أن هذا الوقت سوف يمضي.

obeikan.com

obeikan.com

# دخول مفاجئ

في ذلك اليوم وقفت طويلًا أمام رفِّ أشرطة الكاسيت، كنا نستعدُّ لإقامة حفل صغير بروضة الحماد بمدينة الدمام بالسعودية، يطلق أهل السعودية مسمى رياض الأطفال على المدارس المخصصة لسنِّ ما قبل الابتدائية، لا تملُّ أمي حتى الآن من حكي قصة ابنها الذي ذهبت به مقابلة المدرسة ليُقبل في مرحلة رياض الأطفال، فإذا به يعدُّ من واحد حتى مائة بالعربية والإنجليزية، ويشرح لمديرة المدرسة كيف أن الأرض كروية وتدور، ولهذا نرى الشروق والغروب، وكيف أننا لا نطير من على سطح الأرض كما هو حال رواد الفضاء؛ لأننا محكومون بقانون الجاذبية، أتذكَّر هذه القصة الساذجة وأضحك، فلم أصبح رائد فضاء كما كنت أتمنَّى، ولا عالم رياضيات عبقريًا، حتى البيانو والعود ألقيتهما وسط «كراكيب» بيتنا، وتخلَّيتُ عن هواية دفعتني للدراسة الحرة في كلية التربية الموسيقية، فقط رغبة دفينة ظلت مختبئة تحت جلدي لسنوات، أخطو نحوها، وكلما اقتربت أخاف وأعود، أغلق الصفحة وألتهم عامًا بعد الآخر من عمري في تفاصيل سخيفة.

يوم قررتْ معلمتي تنظيم حفل صغير بمناسبة نهاية العام الدراسي، أوكلت لكل طفل بمهمة محددة على

سبيل التدريب على التعاون والمشاركة، زميلتي «أريج» السعودية أحضرت أكوابًا وأطباقًا وملاعق بلاستيكية مع تورتة عملاقة، تولى «مؤمن» السوداني إحضار ساندويتشات الجُبن، بالطبع تم التنبيه عليه من قبل «ميس عبلة» ألا يُحضر سندويتشات البيض على الإطلاق، كنت مندهشًا من ردِّ فعلها كلما سألتْ أحد زملائي عما تحتويه عُلبة طعامه، وعرفتْ أن بها ساندويتش بيض مسلوق، كانت تضع يدها على فمها وأنفها بتأفُّف غريب، فهمتُ حقيقة هذه النظرة فيما بعد عندما عدت إلى مصر، وركبتُ مترو الأنفاق!

تولى الكثيرون مهمات التموين بداية من الطعام والزينة، ووصولًا إلى المشروبات التي توليت أنا إحضارها، ولكنني كنت مصرًا على تولي شيء آخر بدا لي أكثر أهمية، حفل يعني غناء ورقص ولعب، هل ستجري تلك التفاصيل في صمت؟

قالت لي «ميس عبلة» بلهجة شامية: «بكرة بتجيب أشرطة أغاني أطفال مشان نسمعها، فاهم يا مصطفى؟ أغاني أطفال عربي وأجنبي، خبّر الماما تجيبهملك من أي محل كاسيت»!

عادة ما كان أبي يوصلني لمنزلي عقب الدوام المدرسي في تمام الواحدة ظهرًا، يتناول معنا طعام الغداء، ويعود لاستكمال عمله حتى التاسعة مساءً، أرى والدي في اليوم ثلاث ساعات فقط، باستثناء نصف يوم الخميس ويوم الجمعة العطلة الرسمية، لم أخبر والدي يومها برغبتي في شراء الأشرطة المطلوبة، عندما حكيت لأمي تفاصيل اليوم كعادتي، قالت لي: «فات المعاد، والدك في جولة عمل خارج مكتبه، وسيعود

إلى المنـزل مبـاشرة».

بالطبـع لم يكـن العـالم قـد عـرف المحمـول ولا البيجـر عـام ١٩٨٥، أتذكـر تفاصيـل حياتنـا في عـصر مـا قبـل المحمـول، فتدهشـني قدرتنـا عـلى التعايـش مـع تفاصيـل الأيـام بدقـة طيـار آلي لا تحتمـل السـهو والخطـأ.

كنـت مهووسًـا بمكتبـة والـدي الموسـيقية التـي حمـل جـزءًا كبـيرًا منهـا في رحلتـه إلى السـعودية عـام ١٩٨٣، ثـم جـاءت والـدتي ببقيـة الأشرطـة عندمـا لحقـت بـه بعـد عـام، أقـضي سـاعات أفتـش بـين علـب بلاسـتيكية مزينـة بصـور لأشـخاص غريبـة، وجـوه مضيئـة، قمصـان لامعـة، تسريحات شـعر غريبـة، هـؤلاء لا يشـبهون أبي وأصدقائـه ولا أمـي وجاراتهـا، أطلـب مـن أمـي أن تقـرأ لي مـا هـو مكتـوب عـلى كل علبـة، ثـم تفتـح لي واحـدة، وتُخـرج ذلـك المربـع السـحري لتضعـه في الكاسـيت، فينطلـق صـوت يداعـب مزاجـي، أردِّد مـا يقولـه الكاسـيت بلهجـة طفوليـة مُتكـسرة، عرفـت أسـماء هـؤلاء مـن أمـي، السُّـمْر الذيـن يرتـدون ملابـس غريبـة اسـمهم «بـوني إم»، هـذا الأنيـق اسـمه «خوليـو جلاسـيوس»، أمـا هـذا الشـاب النحيـف فهـو «عـلي الحجـار»، أحببـت «عمـر فتحـي» جـدًا خاصـة عندمـا كانـت أمـي تدنـدن لي أغنيتـه الشـهيرة «ابسـط يـا عـم»، وهـي تقلـب البطاطـس في الزيـت المغـلي، فتقلـب روحـي بـين الملـل والبهجـة، وأنـا أنتظـر طعـام العشـاء، لم يكـن بينـي وبـين العُلـب التـي تحمـل صـور «أم كلثـوم» و«عبـد الحليـم حافـظ» أي اسـتلطاف، كان والـدي شـغوفًا بـ«فايـزة أحمـد» و«نجـاة» و«سـيد

مكاوي»، يسمعهم أوقات المساء، في حين لم تفرض عليّ أمي محبتها لـ«وردة»، صور وأصوات وأسماء نحتت ملامح أيام طفل وحيد في بلد غريب، يقف الآن أمام مكتبة الأشرطة لينتقي واحدًا منها يُسمِعه لزملائه في حفل الغد.

مددت يدي والتقطت شريطًا، أعجبتني صورة الشاب الجالس على البحر بجيتار، كان هناك شيء ما في الصورة يدفعني لقبوله أكثر من الآخرين.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى فصلي منتشيًا عقب طابور الصباح، كالعادة وطبقًا للنظام الصارم تناولنا إفطارنا في الفصل، ثم ذهبنا إلى الحمام لغسل أسناننا بالفرشاة والمعجون، كان التفتيش على نظافتنا الشخصية صارمًا، رائحة الملابس، نظافة الشعر والأظافر مقدسات لا يمكن خدشها، أدين بالفضل لروضة الحماد في كل عاداتي الشخصية الحميدة، الحقيقة أنني أدين بكل ما تعلمته في طفولتي لنظام تعليم منضبط في بلد ما زلنا نراه مجرد «شوال رز»!

وضعت أغراضي كاملة على مائدة كبيرة في آخر الفصل، كنا عشرة أطفال فقط على ما أتذكر، وبدأت المُعلمة في تزيين السقف بأوراق الزينة الملونة بمساعدة «الدادة الفلبينية»، بينما بدأت أنا وزملائي في رصِّ الأطباق والأكواب البلاستيكية، كل شيء أصبح جاهزًا في دقائق، والآن ماذا أحضرت يا «مصطفى»؟

ذهبتُ إلى حقيبتي وسحبتُ منها شريطًا وسط نظرات

الجميـع، وأعطيـت الشريـط لمعلمتـي بمنتهـى الثقـة، قلـت: «هنسـمع ده يـا ميـس»، أمسَـكَت بالشريـط وضحكـت حتـى احمرَّ وجههـا، قالـت بدهشـة: «إنـت عـم تسـمع هـي الإشـياء»؟

ارتبكـتُ في لحظـة شـعرتُ معهـا بأننـي أخطـأت، سـكتُّ؛ خوفًـا منهـا، كنـت طفـلًا خجـولًا إلى حـدٍّ مَـرضي أمـام الغربـاء، مـا دون أمـي وأبي كانـوا بالنسـبة لي غربـاء، بينـما أتحـوّل في منزلنـا إلى ثرثـار لا يمـلُّ مـن الـكلام «عـمال عـلى بطـال»، فضـوليّ أتدخل في تفاصيـل أحاديـث أمـي وأبي.. في تلـك اللحظـة احتضنتنـي معلمتـي وقبَّلتنـي حتـى أطمئـنَّ، سـألتني: «بابـا وماما أعطـوك هيـدا الشريـط، ولا إنـت سـمعته وعجبـك وجبتـه»؟

قلـتُ مـترددًا: «أنـا حبيـت أجيـب الشريـط ده، نسـيت أقـول لبابـا عـلى شريـط أطفـال، ومرضيتـش أنزلـه بالليـل يـدور عليـه بعـد مـا رجـع مـن الشـغل».

لم أجـد حتـى يومـي هـذا تفسـيرًا لنظـرة معلمتـي لي بعـد هـذا الـرد، أمسـكت بيـدي، وقالـت لزملائـي: «مصطفـى جايـب شريـط مـن عنـد باباه، وهـو بيحبـه كتير، وبيحـب الأغـاني الـلي فيـه، هنسـمع منـه شـويه، وبعديـن نشـغّل أغانينـا الحلـوة».

أخرجـت الشريـط مـن علبتـه، وأدارتـه، وجـاء صـوت المطـرب مرهفًـا خفيفًـا مختلفًـا عـن تلـك الأصـوات التـي أسـمعها، لم يشـبه «عمـر فتحـي» الـذي أحبـه، ولا «عـلي الحجـار» الـذي حفظـت أغنيتـه «عنـوان بيتنـا» مـن كثـرة غنـاء أمـي لهـا، حتـى لهجتـه تشـبه إلى حـد كبـير لهجـة معلمتـي، وهـو يغنـي:

«وين أيامك وين يا غايب ع العين».

كانت «ميس عبلة» سعيدة بالأغنية على عكس زملائي، سألني صديقي «مؤمن»: «مَن هذا»؟

قلتُ له: اسمه «حميد الشاعري».

obeikan.com